من القصص الرمزي

تجارب

جبل شامخ يمتد في عرض الأفق ، له جانبان أحدهما مضيء يواجه الناس والآخر سابح في الظلام لا يعرف أحد حقيقة ما فيه .

وعند أقدام هذا الجبل خلق كثير تدفعهم جميعاً قوة خفية إلى أن يتسلقوه . وسأل بعضهم بعضاً عن هذه القوة الخفية التي تدفعهم الى الأمام دفعاً وترفعهم على الجبل رفعاً . فتساءلوا عما هي ، ثم قالوا لسنا ندريها !! إنها قوة أحسسناها يوم أحسسنا الحياة ، بل إننا لم نعرفها إلا بعد أن لمسنا آثار دفعها . هي نفسها التي عرفتنا ثدي الأم ونحن صغار ... إنها الغريزة .. إنها الغريزة .

ولفظوا بهذا القول وهم واقفون عند السفح يتزاحمون بالأكتاف .

ولم يكن في رقعة الجبل المضيئة إلا طريق ممهد واحد يفضي إلى القمة ولا يسع إلا صاعداً واحداً ، طريق تحته الأقدام في صخور الجبل على مرّ الزمن وكثرة الصاعدين . ترتقي الأرجل فيه بحركة آلية على كثرة التوائه وتعرجاته وضربه في كل نواحي الجانب المضيء . خلق للصعود فحسب وللتقدم وحده ، فلا يستطيع أحد أن يهبط فيه متراجعاً الى الوراء وإلا سخر منه من وقفوا بالسفح . يمر بكهوف هي مناجم ذهب ، ثم بكهوف هي أوكار حيات ثم بكهوف عسل فيها النحل ، وهنالك عيون تتفجرت بالماء ، وليس يستطيع الصاعد أن يحيد عن المرور بهذه جميعاً ، ويتابع السير مرفوعاً بالقوة الخفية حتى يصل الى القمة .

* * *

وتقدم أقرب الواقفين من مدخل الطريق ونظر الى من خلفه نظرة وداع ، وحملته القوة الدافعة فجعل يصعد في الطريق محلقاً سعيداً غنياً نفسه بما سيلاقي من جمال وذهب ، وبقي الجمع واقفاً ينتظر كل واحد منهم دوره .

ودار الطريق بالصاعد الأول يمنة ويسرة ، وعلا به مرة وسفل به مرة ، وتعاورهُ النور والظلام في حزون الجبل وسهوله ، وهو منتبذ بتاويز لأنه ينال من القاسة عدوة . ومن السماء اهتداء . وألقى نظرة على من بالسفح ولوّح لهم بذراعيه ، وقال لهم : إني سعيد . فردّدت أرجاء الجبل قوله : إني سعيد . فشعر الصاعد الثاني وهو لا يزال عند مدخل الطريق ، من أذياله مستعجلاً وصول الأول الى القمة حتى يصعد من بعده .

ثمّ دار الطريق بالأول يمنة ويسرة ، وعلا به مرة وسفل به مرة ، حتى بلغ كهوفاً عسّل فيها النحل ، فأراد أن يطعم ولكن أرجاء الكهف أنّت بهما بطنين النحل ، فغالبها حتى غلبها وطعم من شهدها بعد أن نالت منه إبرها كل منال . فألقى نظرة على من بالسفح ولوّح لهم بذراعيه وقال : إني سعيد ، ولو أن ابر النحل آذتني . فردّدت أرجاء الجبل قوله : إني سعيد . فتمهل الصاعد الثاني في مكانه عند مدخل الطريق مستعجلاً وصول الأول الى القمة حتى يصعد من بعده . ثم دار الطريق بالأول يمنة ويسرة ، وعلا به مرة وسفل به مرة ، حتى بلغ كهوفاً وكرت فيها الأفاعي ، ودسّ يده في ظلمة الكهف فأحسّ أن فيه شرًّا ، فأسرع يجري ، وتعثرت أقدامه فجعل يصيح : يا للشقاء ! يا من بالسفح كونوا على حذر فان الطريق ليس خيراً كله : هنا الذهب ، وهنا العسل ، وهناك الأفاعي . كونوا على حذر ... فردّدت أرجاء الجبل : كونوا على حذر !

ورجعت الأفعى حين أيقنت أنه لن يعود ، وأخذ الصاعد في طريقه حتى وصل الى القمة ووقف يفكر ، فاذا بحلاوة العسل والينابيع أقل بكثير من مرارة الفزع حين مطاردته الأفعى . ثم أحسّ أن القوى خارت ، وان السفر الطويل أذوى العود ولوّح الوجه وأضعف النظر . والتفت الى الجانب الثاني من الجبل فاذا هو غارق في الظلام . ثم نظر الى الطريق الذي قطعه فاذا به صالح للصعود ولا يقل البودة ، فندم على أن فعل ، ولكن كان لا بدله أن يفعل لقد قطعه بالغريزة ! ورأى من بالسفح شبح رجل يترنح ويترنح ثم يهوي الى الجانب الثاني الى حيث يبتلعه الظلام !

لم يستطع هذا المنظر المفزع أن يحوّل الصاعد الثاني عن عزمه وهو عند مدخل الطريق فنظر الى من خلفه نظرة وداع وحملته القوة الدافعة الخفية فجعل يصعد في الطريق مجلاة سعيداً

لأنه سينتفع بتجاربه من سبقه : سيجتنب من الينبوع ويطعم من العسل مجانباً طريق الأفاعي .

وما كادت رجلاه تأخذان الطريق حتى هبت في أعلى الجبل رياح عاصفة شردت النحل عن الخلايا فترك عسله بلا حارس ، وأجبرت الأفاعي على أن تهاجر من كهفها الأول الى جحر كهوف الذهب فنامت حوله . وشخص من بالسفح الى الصاعد الثاني وأوهموا الأسماع ، فردّدت أنحاء الجبل قوله : إني سعيد ، عسل لا يحوطه نحل ، وافرحتاه ! فشمر الثالث من أذياله عند مدخل الطريق مستعجلاً وصوت الثاني الى القمة حتى يصعد من بعده . وما هي إلاّ فترة حتى سمعوه يقول : ليس في كهف الأفاعي أفاعٍ ، يا له من طريق مأمون ! فساد السامعين هرج ومرج ثم قالوا : لتحي التجارب ! ودار الطريق بالصاعد بغتة ويسرة ، وعلا به مرة وسفل به مرة حتى بلغ كهف الذهب ، ودسّ يده في ظلمته فلدغته حية . وهنا ردّدت أرجاء الجبل صرخة مرعبة قوية روعت سواكن الطير ، وتهامس من بالسفح :

لكن ... فلن يقع الثالث في هذه الغلطة ! ثم جعل الثاني يدور مع الطريق متململاً من الألم والأفعى ترقص في موضعها لأنها ثأرت لنفسها ، حتى وصل اللديغ الى أعلى القمة فاذا القوى خائرة والجسم تالف . فنظر الى الجانب الثاني ودار مترنحاً ثم هوى الى حيث يتلمه الظلام . ولكن هذا المنظر المفزع لم يحوّل الصاعد الثالث عن عزمه وهو عند مدخل الطريق !

* * *

كانت طبيعة الجبل خاضعة لناموس التغير لا فرق بينه وبين من يقف عند سفحه من الناس : فلم يكن ذهبه يستقر في مجرة حتى تنقله الأفاعي الى مجرة أخرى ، وكثيراً ما كانت سباع الجبل من طير ووحش تهجم على خلايا العسل فتتلفها ثم يخرج النحل غيرة من جديد في مكان بعيد . أما العيون فكانت تغيض في مكان ثم تنبع من بعد في مكان آخر .

لم ينل الصاعد الثالث في طريقه الاّ الماء ، وطاردته الحيات طول مسيره حتى لقي مصيره على ذروة القمة ، ولم ينل الصاعد الرابع سوء ولا أذى فطعم شهداً وارتوى ماء واختلاً ذهباً ، حتى بلغ القمة فهوى الى الجانب الثاني ولم تكف أرجاء الجبل عن ترديد

لغطي السعادة والشقاء مع كل صاعد . فلا الطريق مسعد ولا الناس يكفون.

وهنا جاشت النفوس بريب شائك وتذمر شديد ، وبدأ من يلسفج يقولون

— حدثنا عبث ... ما أحلقنا ألاّ نستجيب إلى نداء ما سميناه بالغريزة فنكف من أول خطوة عن الصعود في هذا الطريق الوعر!

— إننا لا نستطيع وأنت واقف عند مدخله أن تزود نفسك الطموح عنه ، لأن بريق ذهبه يعميه .

— ونستطيع أن ننتفع بتجارب الذين سيتركك فتحيد عن الأوكار وتمر بالناجحة

فقال حكيم : إن فينا من العاقلين كثيراً ... وإلى هذه الساعة لا تفهمون أن قيمة الجبل غير ثابتة ! ؟ كل شيء فيه يتغير الاّ النور والظلام ، فما قيمة تجارب من سيقولها ؟ ؟ لا أنكر أنها نافعة ولكن إلى حدٍّ غير بعيد .

فقال فيلسوف : لكنها تهدي صاحبها على الأقلّ

فضحك أحد الجاهلين وقال : لكنه لابدّ خر منها القدر الصالح إلا بعد أن يقطع الطريق كله ثم يجد نفسه عند القمة ، ثم يبتلعه الجانب المظلم فلا تغني عنه التجارب فتيلاً

فضحك القوم من حكمة المجنون ...

وعادت النفوس فجاشت بريب شائك وتذمر شديد .

* * *

وهنا وقف أحد العالمين وقال : أيها الناس : إن مصدر عنائكم في موقفكم هذا هو أنكم تتصورون الجانب المضيء من هذا الجبل عن جانبه المظلم . هنالك تكمن سعادة السعداء وتنشأ للأشقياء سعادة ما داموا يحفظون توازنهم وهم صاعدون في الطريق . هنالك ضياء وهنا ظلام .. هناك طريق ليس للمرء آخر المطاف فيه !!

فالتفوا حوله يقبلونه وهم في نشوة اليقين ، وسخروا من أنفسهم التي تصوّرت أنّ هناك جبلاً له جانب واحد

محمد عبد الحليم عبد الله